

الإثنيون 26-11-2007

87- عن الفطرة (3)

عن القشرة والفطرة والتعدد والواحدة!

أثارت يومية أمس تساؤلات واحتجاجات كثيرة، لغموض فكرة التعدد في واحد، وعلاقة ذلك بالقشرة والفطرة، التي ذكرناها في حالة عصام يومية 4-11-2007، ثم علاقة هذا وذاك بجركية النمو، وهذا الغموض هو بعض ما أعلنت تخوفي منه أمس.

وجدت اليوم أنه من المناسب أن أقوم بتحديث بعض أول مقال (رقم 1) في سلسلة مقالات الصحيفة السرية التي كانت بعنوان "أنا واحد ولا كثير"، وهو المقال الذي يوضح أساس هذا المفهوم (التعددية والواحدة) ثم أقوم بربط محدود لفكرة "القشرة" و"الفطرة" مع "حركية النمو" و"تعدد الذوات".

نبدأ أولاً بما انتهينا إليه في الحالتين عصام ثم علاء.

أولاً: الفرض: في حالة عصام

الفرض الذي أنهينا به عرض حالة عصام كان كالتالي:

شاب (23 سنة) نشأ في أسرة مزدحمة شكلاً، مفرغة موضوعاً، تفتقد إلى أي دفاء حقيقي يضم أفرادها إلى بعضهم البعض، لا يوجد بها تاريخ عائلي إيجابي لمرض نفسي أو عقلي خطير، الوالد حاضر حضوراً جافاً ملتويًا، يعلم الأقرب إليه من الأولاد التجسس على الباقين، "عصام" ثم لاحقاً "أخته الأصغر".

الأم ضعيفة سلبية متنجية مقهورة، جافة "متلصمة".

عصام -مثل أي واحد- له داخل طبيعي سليم هو الفطرة (كما خلقنا الله) لكن أحداً لم يتعهدها، لا الأهل ولا المجتمع، هذه الفطرة تغطت بقشرة تربية لامة، لكنها -الفطرة- ظلت تتعامل من وراء القشرة مع ما يصلها من برجة بطريقتها البسيطة الصحيحة.

القشرة تنجح وتتم صفقاتها مع الوالد والفطرة "تعرف" وتدرك، وتتعامل مع المعلومات باستيعاب سليم

تصادم الفطرة مع القشرة في مرحلة باكرة (الابتدائية)

يظهر الصداق، ثم يختفى ربما بالبعد بينهما (بين القشرة والفطرة) مع استمرار نشاط كل منهما.

تستمر القشرة في النجاح الظاهر، والصفقات الداعمة الخبيثة (بين الابن و الأب: التمييز والتجسس) وتستمر الفطرة في النشاط والتماسك والمعرفة السليمة والادراك الداخلى.

تنجح الفطرة حتى في برجة المعلومات والإسهام في أداء الامتحانات، فيفسرها الابن حامداً فضل الله، لكن يبدو أن الداخل تجاوز هذا المستوى سراً، وفي نفس الوقت أجل إعلانه.

حادث دال خطير (صفعة مهينة من شخص عزيز أمام غرباء) يحدث بالصدفة يهز هذه التركيبة برمته،

يفسد الصفقة الخبيثة الجارية،
فتختل صورة الأب ليظهر على حقيقته بلا رجعه
فتفسد الصفقة،

فيحدث التباعد بين الإبن والأب (الزل: سنة) دون ظهور الأعراض بعد،

يجنب الابن أباه، لكن الكسرة قد حدثت في الداخل، فطالت الفطرة التي انفصلت، وارتدت، وانطلقت لحسابها البدائي مختقة القشرة المنفصلة..

الفطرة وحدها لا يمكن أن تواصل إنجازاً واقعياً ظاهراً إلا إذا تكاملت مع أجهزة الأداء السلوكي (القشرة المتصلة).

لكن الرسالة تصل أن القوة الفطرية الداخلية قد انطلقت من بين شقوق الكسرة (المنفصلة)

تتعلمق قوة الدفع ولا تتوقف عند حد استعادة تلقائية الفطرة وأحقيتها، بل تتفاقم حتى تنقلب الفطرة إلى تسليم قدرى أعمى،

ومن ثم تفقد الذات أبعادها،

يتضاعف التمداد في الانفصال وتتجلى سلبية مطلقة لقوى لم تعد هي القوى الضامة المساعدة، ولكنها أصبحت قوى شكلية هابطة من المجهول، وإن لم تفقد في شكلها الظاهري معالم الوصلة وتظل في نفس الوقت تتعامل بنفس الألفاظ "الأذان، واللغة الدينية المسطحة"

تشوهت الفطرة على أنقاض القشرة وظهر الفصام.

ثانياً: خلاصة حالة علاء

جاءت خلاصة حالة علاء أمس هكذا:

إن ما يَجْمَعُ الكثيرين (الكثير) داخلنا هو تماسك ما هو خارجنا وانتظام إيقاعه وسلامه رسائله، "خارجنا"

هذا ما ينبغي أن يبدأ بالأسرة: بالأم والأب،
علاء هنا لم يصله طفلاً إلا فراغ الأب، ودوران الأم حول
نفسها لنفسها في المحل،

كيف إذن يمكن أن تتناغم مستويات وعى علاء (شخصه) على
درب النمو.

إن ذلك النشاز من حولنا لا يسمح لأى منا أن يؤلف لحنه
الخاص المناسب إلى اللحن الأكبر يتناغم مع الوجود البسيط
الحقيقى.

إن التغطية الخارجية لهشاشة المتراكمة، بالضبط
والربط والعمل والإنجاز فقط، قد تؤجل التناثر، ولكنها قد
تخمد الحركية الداخلية حتى يتوقف النمو برغم ظاهر السلامة.

إن مثل هذا الجنون الذى يشتهر باسم "الفصام" إنما يعلن
خيبتنا في استيعاب "الكثير فينا"،

كما أن التغطية بأثقال الكبت والدفاعات طول الوقت
إنما تعلن خيبتنا في استيعاب الحركة داخلنا.

لا مفر من اتاحة الفرصة للحركة المتنامية بين الداخل
والخارج طول الوقت على كل المستويات الممتدة.

قبل الحديث عن ماهية الفصام

ونحن على وشك تقديم نظرى عن ماهية الفصام الذى تتفكك
فيه كل الروابط، ويتعدد التوجه، كما يتشتت أو ينعكس
مسار النمو، وجدنا أنه من الأنسب أن نتعرف على أصل فكرة
الوحدة والتعدد في الكيان البشرى، والتي هى تختلف عن
الشائع عن مفهوم "الشعور والاشعور" و "الهو والأنا" ...
إلخ.

وفيما يلى مقتطف من أول حلقة في هذه السلسلة (أنا
واحد ولأ كثير) لشرح الفكرة:

الوحدة والتعدد في الكيان البشرى

.. أنا واحد؟ ولأ "كثير"؟!؟

أغلب النظريات القائمة، حتى نظرية التحليل النفسى
الفرويدى، تتعامل مع الإنسان باعتباره وحدة متكاملة
قائمة لها معالم وحدود، قد يكتفى اتجاه علم النفس السلوكى
بظواهر التصرف المعلن، بل ويرفض ما دون ذلك بحسم مستول،
وقد تمتد الرؤىة إلى اعتبار أن الظاهر ليس إلا الشعور
(الأنا) الذى يحمل بداخله ما سمي الاشعور، بتقسيماته
وغرائزه ومكبوت أحداثه إلخ، وأن الأخير (الاشعور) يعبر عن
نفسه من خلال ميكانزمات تتجلى في الشعور بطريقة ملتوية.

لكن نظريات أخرى انتبهت إلى أن ما بالداخل ليس مجرد
قوى خفية، وغرائز متحفزة، وذكريات ونوازع مكبوتة، بل هى

محمود تفسيراً لبعض جوانب حالته، ومن ضمنها احتمال التعدد العشوائي (والمتنافر أحياناً)، فراح في هذا المقطع من المقابلة يذكره بذلك، وسوف يشار إليه بـ"،،،،" تجنباً لتكرار الاسم):

الدكتور "،،،،":

إنت عملت حاجة يا محمود تشككى في الست شهور اللى فاتت، رغم الحمد لله استمرار التحسن الظاهري، زى ما تكون لغيت حاجة حصلت، وبإصرار

محمود

دى أفكار غلط

الدكتور "،،،،":

إيه هيّه إلى غلط؟

محمود

أنا مش شايف غير محمود واحد، محمود إلى مش

عايز يروح الشغل، محمود المريض، محمود التعبان.

الدكتور "،،،،":

يا محمود أنا مش جى من بيتنا عشان أسمع لك نظرية حافظها، دا كلام حاصل قصاد عنيانا، مش فاكرك؟ كان فيه حاجات تانية أثناء التمثيل، إنت شفتها بنفسك فينا وف نفسك ، واحنا بنتخانق مع بعضينا، مع نفسنا، واحنا بنلعب الألعاب (أنظر بعد) ، حد يشوف ده كله ، وبعد خمس شهور ، يروح شاطب عليه مرة واحدة؟ وقايل أنا واحد وخلص؟

محمود

لأ مش عملية واحد، أنا فعلا واحد

الدكتور "،،،،":

طيب واللى ظهروا قبل كده في الجروب (المجموعة) ؟ سزبتهم؟

محمود

أنا مقتنع إن محمود ده محمود واحد

الدكتور "،،،،":

هوا أنا رفضته؟ بس اللى انت شفته جنب ده راح فين؟

محمود

دى كانت أفكار بس

الدكتور "،،،،":

يعنى ، ما احنا ساعات بنعامل الأفكار كإنها أشخاص، مش كده؟

محمود:

لا ما ينفعشى

الدكتور "،،،،":

ما هي نفعتي، ياللا نرجع ناخذ الفكرة ونعملها شخص ونشوف: محمود إلی عایز یروح الشغل، ومحمود اللى مش عایز یروح الشغل، نرجع تانى للتمثيل، أنا معاك وزيك..

محمود:

حضرتك أستاذ الطب النفسى، وأدرى منى..

الدكتور "،،،،":

مش مسألة استاذ، إحنا بنلعب، واللى يسرى عليك يسرى على، لو قلت لى طلع يجى اللى عایز یروح الجروب ويجى إلی مش عاوز یجى الجروب، وبيقول ما فيش فائدة، حاحاول مجد..

محمود:

يعنى أنا كام محمود؟ عشرين محمود يعنى ؟

الدكتور "،،،،":

نبدى بتلاتة يا شيخ، باسمالله

محمود:

لا ألفين أحسن

الدكتور "،،،،":

يا راجل بلاش هرب، ماتصعبهاش وتتريق، النظريات بتقول تلاتة أربعة، إنما إحنا شفنا كثير من واقع إلی احنا عشناه سوا

محمود:

خليهم خمسة

الدكتور "،،،،":

يا صلاة النبى، إيه الكرم ده؟ طب يالله عدهم

محمود:

فيه محمود إلی عایز یبقى كويس، ومحمود العيان نفسيا، والوسخ، والسليم، والكانن.

الدكتور "،،،،":

كتر خيرك، إوعى تخاف أو ترجع، طيب إيه رأيك نشوف بقية زملاءنا فى المجموعة بتشوف الخمسة دول، ولا أكثر؟ ولا أقل؟ كل واحد يقول هو بيستقبل مين فى محمود؟ أهو محمود؟

(يعرض على أفراد المجموعة أن يقول كل واحد أنا شايف محمود الـ"كذا".

آنسة (م) 24 سنة : مش فاكرا

سيده (ص) 45 سنة : محمود الضعيف

شاب (ح) 25 سنة : محمود الطيب

شاب (ن) 28 سنة : محمود إلی بیسأل على طول

شاب (ع) 22 سنة : محمود اللى مش منتظم فى الجروب

رجل (س) 36 سنة : محمود المغرور

حمود (مقاطعا) ممكن أقول للأنسة (م) (الأولى 24) تقول
إيه ما دام هيه "مش فاكرة".

الدكتور ",,,":
طبعاً ممكن

حمود

حمود إالى ما عندوش إقبال على الحياة

الدكتور ",,,":

شفت ابتديت بجمسة، وزودت السادس على لسان زميلتك، بقوا
كلهم حداشر، وكنت ناكر ده كله، كنت حاتوديهم فين؟

حمود

كفاية كده يا دكتور؟

الدكتور ",,,":

ليه بقى؟ المهم الحكاية طلعت أفكار وصفات، ولأ بنى آدمين
همه انت؟

حمود

هم قالوا حمودات

الدكتور ",,,":

مش مهم هم قالوا إيه، إيه اللى وصلك إنت؟

حمود

أنا عايز أبقى حمود واحد

الدكتور ",,,":

طبعاً، حد قال حاجة، إالى عايزه شيء، واللى موجود
شيء، عندك حق، ما انا برضه عايز أبقى يجيى واحد فى لحظة
معينة، إمال حاعاللك إزاي، أو حانتفاهم إزاي؟

حمود:

أصل يا دكتور..، أنا حافضل كده

الدكتور ",,,":

ماشى بس نقبل الموجود، ونشوف حانتصرف إزاي. فى لحظة
معينة لازم تبقى واحد، وأنا أبقى واحد، لكن حقيقة الأمر
كل واحد منا الظاهر إنه كثير، يبقى علينا نتحمل
مسئوليته ده، مش كده ولا إيه؟

عبد الغنى (مريض 24 سنة)

على فكرة، أنا برضه بيحصل لى نفس الموضوع، فى لحظة أبقى
كويس وفى لحظة أتغير

الدكتور ",,,":

إنت يا عبد الغنى بتتكلم عن صفات، عن تغير فى الشكل،
فى التصرف، فى الشعور، إحنا دلوقت عايشين "أشخاص" كثير،
أشخاص بحق وحقيق

عبد الغنى

يمكن، مش عارف، يجوز

الدكتور "،،،،":

جرب كده يمكن يطلعوا أكثر من عبد الغنى

عبد الغنى

ممكن

الدكتور "،،،،"

بس من حقك زى محمود وزى تبقى عبد الغنى واحد في لحظة
بذاتها حسب الظروف، معاك حق، وإلا حانعيش ازاي لو
متفركشين كده على طول؟

الملاحظات

والآن دعونا نلاحظ معا ما يلي

1- إنه في خلال أقل من نصف ساعة، استطاع التفاعل في المجموعة أن يتحسس الطريق إلى كشف احتمال التعدد من واقع المعيشة، وليس من باب التنظير والتلقين، إن المسألة ليست إجماع كما تبدو لأول وهلة، فلو لم تكن المجموعة العلاجية قد حركت هذه الشخص داخل أفرادها، لبدت الصعوبة أكبر بكثير لمقاومة قبول هذا الوعى والتحرك.

2- إن إنكار محمود الفجائى لهذه الفكرة بعدما حدث خلال أكثر من خمس شهور، هو في حقيقة الأمر بمثابة إعلان أنها وصلته، ليست كفكرة تقبل أو ترفض، وإنما كمعاشية حركت كيانات حقيقية (بيولوجية حسب فكر الكاتب)، أراد بهذا الإنكار أن يلغيها (أو يتنكر لها) مقاوماً لجديّة حضورها.

3- إن هذه المقاومة لم تكن بالقوة التي تمنع ظهور حقيقة ما وراءها، بل لقد بدا من الحوار والتفاعل أنها كانت السبيل إلى كشف التغير الحقيقى الذى كان، والذى ثبت من التفاعل معه أنه ليس مرفوضاً تماماً من محمود، ولا هو مربع يستأهل كل هذه المقاومة، وكأن المقاومة خطوة نحو مزيد من دعم هذه الحقيقة الجديدة معيشة، فقبولاً، فتمتلاً، ما أمكن ذلك.

4- إن قبول التعدد ليس استبطاناً ذاتياً يقوم به الشخص نفسه بالنظر في نفسه، بغض النظر عما يراه الآخرون، بل إن استقبال باقى المجموعة لفكرة التعدد كان مفيداً في دعم التحريك فالقبول، ليس فقط لحالة محمود لكن للباقيين كذلك، فالتعدد موجود حتى لو أنكره صاحبه، جزئياً، أو مرحلياً، أو تماماً.

5- إن مثل هذا التفكيك ليس هدفاً في ذاته، ولا ينبغي أن يكون كذلك، فالموقف العلاجى يختلف عن المواقف في الحياة العامة. ما لم يكن التفكيك خطوة مسئولة نحو التكامل، فالمسألة تبدو لعبة خطيرة (مع أنها تحدث في الحلم بنفس الصورة)

6- إن التوجه نحو الواحدية (عايز أبقى واحد) هو توجه مشروع وضروري، لكنه لا ينبغي أن تخلط بين "التوجه نحو" الواحدية، و"الثبات عند" الواحد الساكن

وبعد

هذا الاحتمال الذى عرض فى المجموعة العلاجية، برغم ظاهر بساطته، هو احتمال مخاطرة معرفية هامة.

يبدو أن قبول هذه الحقيقة -مرفوضه ابتداءً، إذ كيف يمكن أن يتقبل أى واحد منا أن يرى نفسه بهذه الكثرة إلا كنكته عابرة أو مجازاً؟

لقد اعتدنا أن نتكلم عن صفات مختلفة للشخص الواحد، أو عن مزاج فلان المتقلب، أو عن أحوال فلانة المتناقضة، لكننا لا نتصور أن تكون المسألة قاعدة لنا كلنا، ويا ليتها قاعدة لقبول تغير الأحوال، أو تغير المزاج وإنما هى قاعدة لقبول تعدد وجودنا الخلاق فى حركية ذواتنا المتعددة.

إن سوء فهم هذا الاحتمال (التعدد) على المستوى العام وصل إلى درجة أن كثيراً من الناس تصف أى تغير، حتى فى المزاج بأنه، "ازدواج فى الشخصية"، ويصل الأمر أن يصف هذا السلوك آخرون بأنه "فصام"، بل قد يصل الحال إلى ما نقرأه أو نسمعه من بعض المعلقين السياسيين (أو الأطباء) حين يصفون زعيماً متضارباً فى آرائه بأن عنده شيزوفرينيا، أو حتى وهم يصفون شعباً بأكمله (الشعب المصرى مثلاً) بأنه مصاب أيضاً بالفصام.

مؤخراً أذى مثل هذا الخلط بين قلب المزاج، أو تغير الطباع (بما فى ذلك منظومة القيم) فى مراحل مختلفة من العمر وبين الفصام، إلى وصف الملك فاروق بالفصام من مؤرخين على أعلى درجة من العلم، نقرأ فى عدد "وجهات نظر" الأخير (نوفمبر 2007) ما جاء باخرف الواحد عن أستاذنا الكريم أ.د. يونان لبيب رزق تقديماً للدراسة التى قامت بها الأستاذة الدكتورة لطيفة محمد سالم عن الملك فاروق ما يلى :

"إن ما توصلت إليه الدراسة التى بين أيدينا من وصف الملك المخلوع "بانقمام الشخصية" كان صحيحاً، لأنه الأمر الذى شهد عليه كثيرون من أكثر المقربين للملك المخلوع، وهى الشهادة التى أدلى بها المرحوم حسن باشا يوسف وكيل الديوان الملكى خلال الفترة بين عامى (1942 و1952) لكتاب هذه السطور شخصياً!!

ومن سوء حظ الملك المخلوع أن شخصيته السيكوباتية قد غلبت عليه خلال النصف الثانى من عهده، مما تشكلت معه اللقطة الأخيرة من صورته، وكانت سلبية بكل المقاييس."

مثل هذا وغيره، هو ما دعانى لأن أقدم ابتداءً وبهذا الوضوح فكرة "الوحدة والتعدد فى الكيان البشرى" قبل تقديم التنظير عن ماهية الفصام.

الخوف من الفكرة ومقاومتها

من حيث المبدأ أغلبنا لا يقبل فكرة تعدد الذوات إلا كظاهرة مرضية تستأهل الشجب أو السخرية أو الخذر. إن ما ندعو له هنا حتى نفهم مفهوم التعدد بشقيه المرضى والنمائي، هو أن نضع هذا الاحتمال الجديد (الذي هو أقدم كل الاحتمالات) احتمال "تعدد الذوات في الكيان الواحد" على أنه أمر طبيعي من حيث المبدأ، أما كيفية تجلي هذه الذوات في الحياة العادية (في التعامل، والحلم والإبداع والأساطير) فهو أمر يحتاج إلى تناول الشروط التي تجعل قبول هذه الفكرة وتطبيقها مأموناً.

تمهيد للحديث عن الفصام

والآن، وتمهيداً للحديث عن الفصام بوجه خاص، دعونا نتساءل:

- 1) ما هي علاقة التعدد بالشعور واللاشعور، ومقولات فرويد عن "تشریح الشخصية" ؟
- 2) كيف يتداخل التعدد مع حركية النمو ؟
- 3) ما علاقة التعدد بمفهوم القشرة في مقابل الفطرة ؟
- 4) وهل يمكن أن نقرأ حالة عصام بلغة حالة علاء، وحالة علاء بلغة حالة عصام ؟
- 5) وأين الفصام في كل هذا؟

لا يمكن الرد على أي من ذلك حالاً، فهي قضيتنا الممتدة طول الوقت، وربما مدى الحياة)، فنكتفي الآن بأن نقول:

• الفطرة -كما سبق أن ذكرنا- ليست كياناً، أو صفة (أو مكاناً)، ونستطيع أن نحددنا الآن في ألفاظ أدق قائلين: الفطرة هي تفعيل قوانين حركية الوجود،

• وبالتالي تصبح القشرة الساكنة الجائئة المنفصلة المستبعدة لهذا القانون والممانعة للحركة، هي الغطاء الخارجي للذات

• إلا أن نفس هذه القشرة إذا كانت مرنة ومسامية ومتغيرة فإنها تصبح جزءاً لا يتجزأ من الفطرة، بل ومكتملة لها (فهى أحد أوجه نفس القانون تكمل حركيته وتدعم نظامه).

فأين تقع الذوات المتعددة من هذا وذاك؟

- حركية الوجود: (قانون الحياة)، لا تتم في فراغ
- هي تجرى بإيقاع تناوبى تكاملى جدلى ينظم ويوجه منظومات الوجود البشرى المتعددة (في واحد)
- ممتداً إلى منظومات الوجود الكونى المتصاعدة.
- وبالتالي يصبح تعدد الذوات ليس مجرد حضور متبادل، أو

وإلى أن يجين شرح ذلك، نأمل أن نتحمل المغامرة بالوعي -
نسبياً وتدرجياً- بما هو نحن:

فروضاً محتملة.

- برجاء الرجوع إلى حالة عصام أولاً لمن لم يقرأها أو
نسيها، مع أن المقال يمكن أن يقرأ مستقلاً

- أيضاً ننصح بقراءة حالة علاء أولاً:

- فاروق من الميلاد إلى الرحيل، د.لطيفة محمد سالم، دار
الشروق 2005، 850 صفحة.

- فاروق الأول وعرش مصر: بزوغ واعد .. وأفول حزين
(1920 - 1965)، دار الشروق، 2007، 260 صفحة